Stylistic Phenomena in Nata'ij al-Fikr fi al-Nahw by Abu al-Qasim al-Suhaili (d. 581 AH)

Assistant Lecturer Iman Abdul Jasim
University of Basrah / College of Education – Al-Qurna
E-mail: eman.jasim@uobasrah.edu.iq

Assistant Lecturer Alaa Jihad Fadel
University of Basrah / College of Education – Al-Qurna
E-mail: lec.alaa.jihad@uobasrah.edu.iq

Abstract:

In his work Nata'ij al-Fikr fi al-Nahw, Abu al-Qasim al-Suhaili addresses a range of linguistic issues, including the principles and discussions of stylistics, which form the focal point of this study.

The first section of this research provides a descriptive overview of al-Suhaili's style in the book under examination. The second section then delves into an analysis of stylistic principles and discussions present within the text. A close reading of Nata'ij al-Fikr reveals that meaning serves as the central axis of every issue the author addresses, with stylistic analysis being the foundation of his approach. Given the significant role stylistic discussions play throughout the book, we found it fitting to title this study "Stylistic Phenomena in Nata'ij al-Fikr fi al-Nahw by Abu al-Qasim al-Suhaili".

Keywords: Stylistic phenomena, stylistics, Nata'ij al-Fikr, grammar, al-Suhaili.

الظواهر الأسلوبية في كتاب نتائج الفكر في النحو
لأبي القاسم السهيليّ(ت٥٨١هـ)

م.م. إيمان عبد جاسم **م.م.آلاء جهاد فاضل**

جامعة البصرة / كلية التربية القرنة

E-mail: eman.jasim@uobasrah.edu.iq E-mail: lec.alaa.jihad@uobasrah.edu.iq

الملخّص:

عالج أبو القاسم السهيليّ في مؤلّفه(نتائج الفكر في النحو)عدداً من القضايا، ومن بينها مباحث علم الأسلوب وقضاياه، فكانت هذه المباحث محور هذه الدراسة، وقد بدأنا المبحث الأوّل بإعطاء نبذة وصفيّة عن أسلوب السهيليّ في كتابه موضوع الدراسة، ومن ثمّ اتّجهنا في المبحث الثاني إلى مناقشة مبادئ الأسلوبيّة ومباحثها فيه عموماً، إذ إن قارئ كتاب(نتائج الفكر) لن يستطيع أنْ يجد أيّة مسألة ناقشها من دون أنْ يكون المعنى محورها، والتحليل على وفق مبادئ الدرس الأسلوبيّ منطلقها، ولمّا وجدنا أنّ مباحث الأسلوبيّة تشغل كلّ تلك المكانة فيه ارتأينا أنْ يكون عنوان الدراسة(الظواهر الأسلوبيّة في كتاب نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيليّ).

الكلمات المفتاحية : الظواهر ، الأسلوبية، نتائج الفكر , النحو , السهيلي.

المقدّمة:

الحمد لله حمداً لا يحمد عليه أحد سواه، والصلاة والسلام على من علّمه البيان واجتباه نبيّنا المصطفى محمد وآله الأطهار ومن تبعهم ووالهم إلى يوم الدين.

تحفل كتب النحاة بمادة علميّة غزيرة وضخمة متنوّعة المشارب والاختصاصات، فيها من البلاغة والتفسير والقراءات، ومنها ما يمثّل تجارب فريدة ورائدة في الاشتغال في مجال مناهج الأسلوبيّة، وربّما يكون ذلك لشموخ النصّ القرآنيّ فيها، إذ عمل النحاة على استفراغ جهدهم في البحث والتدبّر في آياته، ولاسيّما التي تحتوي على جنبة لغويّة تستدعي الوقوف عليها، فراحوا يفتّشون في أساليبها، ناظرين في دقّة اختيار ألفاظها وتوزيع مفرداتها وما أنتجه هذا الاختيار وذلك التوزيع من اتساع في المعنى، ومن الكتب الرائدة في البحث في هذا المجال كتاب(نتائج الفكر في النحو) لأبي القاسم السهيليّ(ت٥٨١هـ)، الذي يعدّ علماً من أعلام اللغة والنحو في الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين، فاستوقفتنا هذه المدوّنة لما فيها من دقّة في الوصف، وسعة في عرض صور الاستعمال اللغويّ، وبيان خفاياه مما دفعنا إلى الكشف عن الملامح الأسلوبيّة فيها، فعنونّا دراستنا بـ(قراءة أسلوبيّة في كتاب نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيليّ)، موزّعة على مبحثين: المبحث الأوّل بعنوان: ملامح عامّة عن أسلوب السهيليّ في نتائج الفكر في النحو حاولنا فيه وصف أسلوبه، وما فيه من اهتمام بالقارئ وعناصر الخطاب من متكلّم ومخاطب وسياق الخطاب، وتأكيده على تأثير القصد في بنية النصّ، وغلبة أسلوب الحجاج عليه، وتأثّره بالمنطق الذي بدا واضحاً في أسلوبه، والمبحث الثاني بعنوان: تجليّات مبادئ الأسلوبيّة في كتاب نتائج الفكر في النحو بحثنا فيه مبادئ الأسلوبيّة من اختيار وتوزيع واتساع وانزياح وإحصاء، وختمنا بخاتمة تجلّت فيها أهم النتائج التي توصّلنا إليها في هذه الدراسة، وبالله التوفيق.

المبحث الأوّل:

ملامح عامّة عن أسلوب السهيليّ في نتائج الفكر في النحو

لم يكتفِ السهيليّ بظاهر اللغة أو الجانب الشكليّ لها فقط، وإنّما عني–رحمه الله– بالبحث عن الأسرار الكامنة وراء العبارات، فهو القائل في مقدّمة كتابه:((قد عزم لي بعد طول مطالبة من الزمان، ومجاذبة لأيدي الحدثان، وأمراض همة لا تغب، وزمانة مرض تتيم الخاطر فلا يهب على جمع نبذ من نتائج الفكر، اقتنيتها في خلس من الدهر، معظمها من علل النحو اللطيفة، وأسرار هذه اللغة الشريفة)).[1]

إنّ القارئ العادي ليس في مقدوره التعرّف على السمات الأسلوبيّة للنصّ، بل لا بدّ من وجود نوع معيّن من القرّاء هو القارئ الحصيف المتميّز الذي يعرف نوع التراكيب التي تمتلكها اللغة، ومن ثمّ يعرف نوع الخصائص التي يتوقّع أنْ تكون لها دلالة أسلوبيّة، ويعرف نوع السياق الذي ترتبط به سمات خاصّة، ويمتلك تقنيات استنباط هذه السمات بطريقة منهجيّة، أي أنّه قارئ ذو كفاءة أسلوبيّة عالية له خبرة طويلة بالأساليب يستطيع أنْ يميّزها كما يميّز الطعوم بطرف لسانه، ودليله في ذلك ذوقه وحساسيته الأسلوبيّة التي تعني رهافة الشعور، ومقدرة فائقة على الإحساس بالجمال، وعلى الانفعال بأدقّ المنبّهات الأسلوبيّة وألطفها وأخفاها،[٢]. واهتمام السهيليّ بالقارئ الحصيف المتأمّل لا يخفى على قارئ نتائج الفكر، فهو لا ينفكّ أنْ يذيل مناقشة المسائل بعبارات تحثّ القارئ على التأمّل والتفكّر بأدقّ الظواهر الأسلوبيّة وألطفها وأخفاها، فهو الذي يرى أنّ تدبّر نكت الإعجاز في النظم والبلاغة في الخطاب خير من الدنيا بحذافيرها،[٣]. وكثيراً ما نجده يؤكّد ضرورة البحث عن أسرار اللغة، وتأمّل دقائق أساليبها؛ لفهم النصّ القرآنيّ واستجلاء لطائفه، وذلك من قبيل قوله:((فإذا كانت صناعة الإعراب مرقاة إلى علوم الكتاب، لا يتولّج فيها إلّا من أبوابه، ولا يُتوصّل إلى اقتطاف زهراتها إلّا بأسبابه، فواجب على الناشئين تحيُّل أصولها، وحثّم على الشادين البحث عن أسرارها وتعليلها))،[٤]. وقوله في قوله تعالى: ﴿**سواء عليهم أأنذرتهم**﴾ [البقرة:٦]، وتقديره بـ(لا يبالون) واختصاصه بـ(على) من بين حروف الجرّ، وما أثير فيها من معانٍ أخر: ((ألا ترى كيف اختصّ بـ(على) من بين حروف الجرّ؛ لأنّ المعنى إذا كان راجعاً إلى عدم المبالاة فقد هان عليك الأمران، وصار أخفّ شيء على من لا يباليهما، ولا يلتفت إليهما، فتأمّله تجد المعاني صحيحة والفوائد كثيرة مزدحمة تحت هذا اللفظ الوجيز، فكذلك نبت عنه كثير من الأفهام حتّى تناقضت عنهم الأصول التي أصّلوها، واضطربوا في الجواب عن الاعتراضات التي ألزموها، مع ما غاب عنهم من فوائد هذه الآيات وإعجازها، وسمانة هذه الكلمات على إيجازها))،[٥] وقوله بعد بيان ما تضمّنه قوله تعالى: ﴿**طهّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود**﴾ [الحج:٢٦] من معاني لطيفة وفوائد ظاهرة وباطنة، وحكم باهرة، وما فيه من حسن انتظام: ((فمن لحظ هذه المعاني بقلبه، وتدبّر هذا النظم البديع بلبّه، ترقّع في معرفة الإعجاز عن التقليد، وأبصر بعين اليقين أنّه تنزيل حكيم حميد))[٦].

ولم يغفل السهيليّ تأثير القصد في بنية النصّ وأسلوبه، فالمنشئ يبني نصّه ويقيمه على نظامٍ معين، ويختار لذلك وسائل لغويّة ملائمة بما يضمن له تحقيق مراده في التواصل مع المخاطب، وتجلّى ذلك في حديثه عن قصد المتكلّم في اختيار الألفاظ التي ينطق بها لإعلام المخاطب بشيء ما، قائلاً: ((وفائدة أخرى، وهي أنّ الداعي قد يضمن دعاءه القصد إلى إعلام السامع، وإعلام المخاطب بأنّه داع، فجاء اللفظ بلفظ الخبر إشعاراً بما تضمّنه من معنى الإخبار، تقول:(أعزّك الله وأبقاك)، و(أكرم الله زيداً)، و(لا رحم فلاناً)، جمعت بين الدعاء والإخبار بأنّك داع، ويوضح ذلك ويبيّنه أنّك لا تقول ذلك في حال مناجاتك

مولاك وسؤالك إيّاه لنفسك أو لغيرك، حيث لا أحد يسمعك أو يراك، لا تقول: (رحمني ربّ)))،[٧] وفي قوله تعليقاً على أقوال النحاة بشأن(سواء على) في قوله تعالى: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ**﴾ [الأعراف:١٩٣]، ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يس:١٠] ((العرب لم تنطق بمثل هذا في سواء حتّى قرنته بالضمير المجرور بـ(على)، نحو:(سواء عليهم) و(سواء عليّ أقمت أم قعدت)، ولا يقولون:(سيان أقمت أم قعدت)، ولا (مثلان) ولا (شبهان)، ولا يقولون ذلك إلّا في (سواء) مع المجرور بـ(على)، فوجب البحث عن السرّ في ذلك، وعن قصد القوم في هذا الكلام)).[٨]

وبدأ في أسلوبه أسلوب المدرّس الذي يكثر من الاعتراضات، وأغلبها اعتراضات مفترضة تمهيداً للردّ عليها؛ لذلك((غلب عليه أنْ يقول: فإنْ قيل... قلنا، كما بدا فيها جانب آخر وهو حشد النظائر وضرب الأمثلة؛ رغبة في التوكيد والتقوية؛ ولذلك فإنّه يمكنك أنْ ترى يقيناً ظواهر لغويّة اختلف فيها النحاة من دون أنْ يحدّدوا الظاهرة متحدّثاً عن أسرار زيادة بعض الحروف، وعن علاقة الدعاء والزمان، وكذلك ترى في المسألة أبواباً مختلفة من النحو وثقافة متعدّدة الجوانب))،[٩] وغلب على أسلوبه الحجاج بوصفه أحد أهم المباحث الأسلوبيّة في اعتماده على إثارة الأسئلة والإجابة عنها، وهي نقطة بدء الحوار ومدخل الحجاج، مستحضراً أسلوب الحجاج تحسّباً لأي ردّ واعتراض قد يواجه خطابه، ومن ذلك توظيفه عبارات من مثل: قال، قلت، قلنا، فإنْ قيل ... إلى غير ذلك من العبارات التي طفحت بها صفحات كتابه، فغلب على أسلوبه أثر المنطق في عرضه الآراء وتحليله المسائل مرتكزاً على الحوار العلميّ، وهي النزعة التي اشتهر بها نحاة الأندلس، فنتائج الفكر إنموذج صادق لما وصل إليه الوعي والنضج الفكريّ في بلاد الأندلس، فهو كتاب تميّز بين الجدّة في مناقشة مسائل النحو واللغة والأدب بعمق مبيّناً مواطن الإعجاز النحويّ في نصوص القرآن الكريم،[١٠]ومن آثار المنطق التي بدت واضحة في أسلوبه استعماله مصطلحات منطقيّة في كثير من المسائل والمواضع التي حاول فيها الربط بين اللغة والمنطق وتشبيه المفاهيم اللغويّة بالمفاهيم المنطقيّة؛ بغية إثبات رأيه وتقريب الفكرة للمتلقيّ بإدخاله كثيراً من التعبيرات ذات المدلول المنطقيّ التي ترتبط بمعاني ذهنيّة أو خارجيّة لحاجته إلى التعبير بها كتعبير(هو هو) و(ما يقومّ بنفسه)، (والجوهر)، و(العرض)، و(الماهيّة)، ومن ذلك تشبيهه الألفاظ بالأجساد والمعاني بالأرواح في تشاكلها في قوله: ((الألفاظ مشاكلة للمعاني التي هي أرواحها، يتفرّس العاقل فيها حقيقة المعنى بطبعه وحسّه، كما يتعرّف الصادق للفراسة صفات الأرواح في الأجساد بنحيزة نفسه))،[١١] ومنها –أيضاً– قوله في فصل أقسام النعت في العلاقة بين الصفة المعنويّة والصفة الفعليّة، وارتباط الأخيرة بالأولى في المحدثين، ونفي الارتباط في أفعال الذات الإلهيّة:((الفعل في المحدثين راجع إلى الصفة المعنويّة؛ لأنّ الفعل منهم هو حركة الفاعل والحركة معنى في الذات، بخلاف أفعال الباري–سبحانه– فإنّها ليست بحركة فاعل، وإنّما هي في غيره لا في نفسه))،[١٢] وقوله في نعت الأعراض والجواهر وبيان رأي الأشعريّة

والمنطقيين في نعت الأعراض بالصفات النفسيّة: ((وجميع ما تقدّم من أقسام النعوت يختصّ بالجواهر دون الأعراض، إلّا النعت المنبئ عن الكثرة والزيادة في الأدوات، فلا يكون في الجواهر والأعراض، تقول علم كثير وحركة سريعة، وهو مجاز؛ لأنّ سرعة الحركة راجع في التحقيق إلى حركات كثيرة متواليات. نعم وقد يوجد في كلام نعت الأعراض بالصفات النفسيّة نحو قولهم: سواد شديد، وبياض ناصع، وحمرة قانية، وحرارة شديدة إلّا أنّ هذه النعوت راجعة عند الأشعريّة إلى كثرة الأجزاء المتّصفة بها، وليست عندهم كصفات الألوان ولا الأعراض، لا معنويّة ولا نفسيّة. وذهب غيرهم من المنطقيين إلى أنّها صفات نفسيّة وعبّروا عنها بالكيفيّات، وإلى هذا القول ذهبوا، فما تميّز سواد من سواد، ولا بياض من بياض حتّى صارت أنواعاً مختلفة إلّا بصفات ذاتيّة وأحوال نفسيّة، وهي الكيفيّات، ولكنّ اللغات ضاقت عن وضع ألقاب لجميع أنواع الأعراض، فرجعت إلى وصفها بما هو مجاز في حقّها، أو بتمييز بعضها من بعض فضلاً عن جواهرها، كقولهم: رائحة مسك، ورائحة تفّاح))[١٣]، وقوله في البدل:((لا يبدّل جوهر من عرض))،[١٤] وقوله في إثبات أنّ دلالة الفعل على الفاعل أقوى من دلالته على المفعول به: ((أنّ الفعل هو حركة الفاعل، والحركة لا تقوم بنفسها، وإنّما هي متّصلة بمحلّها، فوجب أنْ يكون الفعل متّصلاً بفاعله لا بمفعوله))،[١٥] وقوله في الردّ على من اعترض بأنّ الفعل لا يدلّ على فاعل معيّن ولا على مفعول معيّن وإنّما دلالته عليهما مطلقة، ففي قولنا: ضربَ زيدٌ عمراً، لا ينبغي أنْ يعمل الفعل حتّى تقول: ضربَ ضاربٌ مضروباً بهذا اللفظ؛ لأنّ لفظي زيد وعمر لا يدلّ عليهما الفعل ولا يقتضيهما:[١٦] ((لا فائدة عند المخاطب في الضارب المطلق، ولا المفعول المطلق؛ لأنّ لفظ الفعل قد تضمّنها، فوضع الاسم المعيّن مكان الاسم المطلق تبييناً له، فعمل فيه الفعل؛ لأنّه هو هو في المعنى وليس بغيره))،[١٧] وقوله: في عدم احتياج الخبر إذا كان اسماً مفرداً جامداً إلى رابط يربطه بالمبتدأ: ((فإنّ كان اسماً مفرداً جامداً لم يحتج إلى رابط يربطه بالأوّل؛ لأنّ المخاطب يعرف أنّه مسند إليه من حيث كان لا يقوم بنفسه))،[١٨] وقوله في أصل الوضع لـ(عرفت، وعلمت): ((فإذا قلت علمت فمطلوبها ثلاثة معان: جوهر وهو المحلّ، وصفة وهو القيام، وإضافة الصفة إلى المحلّ، فهي ثلاث معلومات متلازمة في العقل: الجوهر منها معروف، وماهيّة الصفة معروفة على حدّتها، والحدث الذي هو مركّب من الجوهر والصفة معلوم متضمّن ثلاث معلومات)).[١٩] فيما تقدّم يدل دلالة كافية على توظيف السهيليّ في لغته وأساليبه في التعبير لغة جدليّة منطقيّة، تشبه –إلى حدٍ ما– التعبيرات التي شاعت في لغة المنطقيين.

ومن الملاحظ على أسلوبه الحجاجيّ أنّه يلجأ إلى التأكيد والشرح ليقنع المخاطب، ويحرص على جعل حجاجه في ضمن الثوابت العرفيّة مستعملاً الاستفهام الاستنكاريّ في كثير من معالجاته للمسائل المطروحة في مؤلّفه ومنها –مثلاً– قوله:((فضمير الفاعل المستتر في الفعل كيف يصحّ استتاره فيه والفعل

كلمة مؤتلفة من حروف والحروف أعراض في اللسان أجزاء من الصوت لا يستتر فيها شيء ولا يظهر إذ ليست بجسم؟!)).[٢٠]

حصيلة ما تقدّم حاولنا فيه إلقاء الضوء على بعض الخصائص التعبيريّة بقدر ما تستوعبه الدراسة، إذ ركّزنا فيه على اللمحات الأسلوبيّة البارزة عند السهيليّ في نتائج الفكر، ومن ثمّ اتجهت النية لرصد بعض المبادئ الأسلوبيّة المتميّزة فيه، فالأسلوبيّة ليست علماً من صميم الحداثة، بل عرفها علماؤنا الأفذاذ من حيث الممارسة والتطبيق، ولسنا نزعم أنّ السهيليّ يمتلك وعياً نظريّاً كاملاً عن هذا المنهج، إلّا أنّ متابعة تحليله للتراكيب وبصفة خاصّة فيما يتعلّق بآيات كتاب الله –عزّ وجلّ– التي تكشف عن مبادئ أسلوبيّة بارزة، إذ برزت ملامح الفكر الأسلوبيّ عنده من خلال تركيزه على المتكلّم وقصده، والمخاطب والطرائق التي يكشف بها عن المعنى، وتوظيفه السياقين اللغويّ والمقاميّ للوصول إلى المعنى الدقيق، وهو يؤكّد ضرورة مراعاة الاستعمال الوظيفيّ للأدوات والأبنية والتراكيب، فكتابه نتائج الفكر لم يغفل في مضامينه مستويات الدرس الأسلوبيّ الحديث و مبادئه.

المبحث الثاني:

تجليّات مبادئ الأسلوبيّة في كتاب نتائج الفكر في النحو

أوّلاً: الاختيار:

تخضع العمليّة اللسانيّة لعامل الاختيار والانتقاء على أساس التعادل والتأهيل، ويقوم المخاطب بعمليّة انتخاب من بين كثير من المعطيات اللسانيّة المطروحة التي تتعادل دلاليّاً، إذ يتفوّق أحدها بتناسبها وملاءمتها مع المقام المتنزّل فيه، وذلك في ضوء مبدأ التأهيل،[٢١] إذ إنّ إمكانيّة الاختيار بين بديلين أسلوبيين أو أكثر هو جوهر المفهوم المعاصر للأسلوب،[٢٢] وليس الأسلوب الجيد سوى اختيار الكلمات المناسبة[٢٣]، فالاستبدال وسيلة تتيح للمتكلم اختيار المنجز اللغويّ الصحيح لغويّاً، والصيغ المناسبة لسياق الاستعمال والمعنى المطلوب فضلاً عن السلامة النحويّة وموافقة الذوق السليم وهو وسيلة للكشف عن خفايا التراكيب، وتحليل الصيغ اللغويّة، وتبيين أسباب اختيارها، ويطلق عليه الدكتور المسدّي الاستبدال، وهو عبارة عن ((مجموعة الألفاظ التي يمكن للمتكلّم أنْ يأتي بأحد منها في كلّ نقطة من نقاط سلسة الكلام)).[٢٤]

إنّ التعبير المؤثّر والمصيب للهدف على نحو مضبوط ودقيق يتطلّب أنْ تختار الألفاظ الأكثر ملاءمة بعناية وتروٍ، الألفاظ التي تفي بالغرض، وتسعف في التعبير عمّا يراد التعبير عنه، ونلتمس حضور مفهوم الاختيار في نتائج الفكر في النحو بشكل واضح وجلي، فالسهيليّ–كما قلنا–لا ينفكّ أنْ يتساءل: لم قيل كذا، ولم يقل كذا؟ ويعتني باختيار التركيب المناسب ومن ذلك قوله : ((لأنّك لا تريد

بقولك)) ،[٢٥] وقوله:((إذا أردت ذلك المعنى جئت بلفظ غير))،[٢٦] ويذكر السهيليّ مبدأ الاختيار صراحة في قوله: ((الاختيار تقديم الاسم المجرور إذا لم يسقط حرف الجرّ يجوز التأخير، تقول: اخترت من الرجال عشرة، ولو قدّمت العشرة لم يحسنْ؛ لأنّ المخاطب يتوهّم أنّ المجرور في موضع النعت للعشرة، وليس في موضع المفعول الثاني))،[٢٧] ونجده يلتمس الدواعي التي قضت باختيار ألفاظ وعبارات بعينها، وفي كثير من الأحيان لا يحمل اللفظ دلالات خفيّة، بل دلالته باقية على ما كانت عليه وهي مقصودة أيضاً، ولكنّه يطلب فيه ما كان به هذا اللفظ أحقّ من غيره في الذكر والاستعمال، وفي أحيان أخر يؤمن أنّ في تراكيب اللغة–وبخاصّة في التراكيب القرآنية، والشعر العربيّ– إشارات إلى معانٍ خفيّة، لا تدرك إلّا بالتأمّل وإعمال الفكر، وقد أكثر من الوقوف عند هذه البدائل اللغويّة محاولا استكناه الحكمة في اختيارها، ووسيلته في ذلك تأمّل التركيب وما يوحيه من دلالات لغويّة وخواصّ معنويّة، ومن الملامح الأسلوبيّة البارزة في نتائج الفكر أنّ السهيليّ لا يفوته أنْ يبيّن أنّ اختيار تركيب ما أو لفظة في تركيب ما أدقّ وأجود من غيرها، وسأورد بعض النماذج لذلك على سبيل التمثيل لا على سبيل الاستقراء الدقيق؛ لأنّ ذلك مما يحتاج إلى دراسة مستقلّة، وكذلك تطرّقت الأستاذة خديجة محفوظ الشنقيطيّ لهذا المبدأ بصورة موجزة جداً في دراستها الموسومة بـ(المنهج الاستبداليّ في كتاب نتائج الفكر في النحو للسهيليّ).

قد يؤتى بأسلوب لأداء معنى مقصود لا يتحقّق بأسلوب آخر، فالمعلوم أنّ لام الجحود في كلام العرب بمنزلة السين وسوف في الدلالة على المستقبل، وتأتي مع كون منفي، فجرت في كلامهم نفياً للمستقبل، لذلك قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]، فالسياق القرآني يدلّ على أنّ النفي نفيّ لأمر متوقّع، وسبب مخوف في المستقبل؛ لذلك اختار التركيب الذي فيه ما يحقّق تلك الدلالة وهو لام الجحود، في حين في الآية نفسها اختلف أسلوب التعبير، إذ قال:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]، فلم يأتِ بلام الجحود بل جاء بصيغة اسم الفاعل الذي لا يختصّ بزمان معين؛ والنكتة في ذلك أنّه أراد أن ينفي وقوع العذاب بالمستغفرين على وجه العموم وفي الأحوال جميعاً، فلا يخصّ بنفيه مضياً من استقبال[٢٨].

وذكر السهيليّ أنّ استعمال(ما) يكون على الأصل فيها وهو الإبهام ووقوعها على الجنس العام، غير أنّ الاختيار القرآنيّ منوط بالمعنى ومرتبط بالسياق، ففي قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، اختار التعبير القرآنيّ(ما) التي للمبهم وغير العاقل مع أنّ السجود كان بأمر من الله لآدم –عليه السلام– وهو عاقل ولم يختر(من) التي للعاقل؛ وذلك لأنّ الكلام ورد في معرض التوبيخ والتبكيت لإبليس اللعين على امتناعه من السجود، وكان استحقاقه لهذا التوبيخ والتبكيت لعصيانه أمر ربّه وتكبّره على آدم(عليه السلام) وهو ما لم يخلقه هو، بل الخالق الله (عزّ وجلّ)، فكأنّه سبحانه يخاطبه بقوله: لم عصيتني وتكبّرت على ما لم تخلقه وخلقته أنا، وشرّفته وأمرتك بالسجود له؟ لذا جاء بهذا

الموضع بـ(ما)؛ لأنّ معناها في هذا المقام أبلغ ولفظها فيه أعمّ، فتكون الحجّة فيه أوقع، فلو جاء سبحانه بـ(من) ، وقال مستفهماً: ما منعك أنْ تسجد لمن خلقت؟ لكان استفهامه لغرض الاستعلام لا لغرض التوبيخ والتبكيت ، ولحصل التوهّم بأنّه أمر بالسجود له من حيث أنّه كان يعقل، أو لعلّة أخرى موجودة في ذات آدم–عليه السلام– وعينه، والمراد ليس هذا الأمر، ولو عيّنه بالذكر، وترك الإبهام في اللفظ الحاصل بـ(ما)، لما تحصّل المعنى المراد.[٢٩]

وكان السهيليّ يعي قيمة الاختيار الذي يترتّب عليه حكم خاص لدى المخاطب، فيقول:((قوله –صلّى الله عليه وسلّم– وقد قيل له: أنتوضّأ بماء البحر؟ فقال: هو الطهور ماؤه،[٣٠] ولم يقل: نعم توضّؤوا؛ لئلا يتوهّم أنّ الحكم مخصوص بالسائل، فلما أخبر عنه أنّه الطهور ماؤه، استمرّ فيه على العموم، ولم يتوهّم قصره على السبب))،[٣١] فاختار الرسول – صلوات الله عليه وآله– التعبير بما يحقّق مراده ومقصده ويدفع التوهّم.

ومن ملامح الاختيار في التعبير ما ذكره من الفروق بين أدوات النفي، ففي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّين َ﴾ [الفاتحة:٧] في اختيار التعبير بأداة النفي(غير) نكتة لطيفة، فلو استبدل أداة النفي(غير) بـ(لا) قائلاً:(لا المغضوب عليهم ولا الضالّين)، لكان جائزاً لكنّ المعنى الذي يتحصّل بغير لا يتحصّل بـ(لا)، وهذا يعني أنّ جوازه مقيّد، أي إذا لم يكن المقصود والمراد معنى غير المعنى المتحصّل بـ(غير)، إذ إنّ في ذكرها بيان الفضيلة للمنعم عليهم، وتخصيصاً لنفي صفتي الضلال والغضب عنهم، فإنّهم الذين أنعم عليهم بالنبوة والهدى من دون غيرهم، فلو استبدلها بـ(لا) وقال: (لا المغضوب عليهم) لم يكن ذلك إلّا تأكيد نفي إضافة الصراط إلى الذين غضب عليهم، كما قالوا: هذا غلام زيد لا عمرو، فأكّدوا نفي الإضافة عن عمر، بخلاف قولهم: هذا غلام الفقيه غير الفاسق ولا الخبيث، فإنّه قد جمع بين إضافة الغلام إلى الفقيه من دون غيره، وبين نفي الصفات المذمومة عنه،[٣٢] وأوضح السهيليّ بفكره اللغويّ فائدة العطف بالحروف ومواقعها، وبين علل التعبير بها، واختلاف المعنى المراد إذا استبدلت بغيرها، ومنها بيان فائدة العطف بـ(لا) في قوله تعالى:﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، ولو لم يأتِ بها لم يختل الكلام، وكان أوجز، فنظرة السهيليّ كانت نظرة المتأمّل بقوله:((العطف بـ(لا) مع الواو فلتأكيد النفي الذي تضمّنه (غير)، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف بـ(لا) مع الواو، وفائدة هذا التوكيد ألّا يتوهّم أنّ الضالين داخل في حكم المغضوب عليهم أو وصف لهم ، ألا ترى أنّك إذا قلت: ما مررت بزيد وعمرو، توهّم أنّك إنّما تنفي الجمع بينهما خاصّة، فإذا قلت:ما مررت بزيد وعمرو علم أنّك تنفي الفعل عنهما جميعاً، على كلّ حال من اجتماع وافتراق)).[٣٣]

خلاصة القول:إنّ السهيليّ بيّن نهج القرآن في اختيار ألفاظه الذي يقوم على مراعاة دلالات خاصّة، فللاختيار دواعيه وأسبابه؛ لما بين الألفاظ والتراكيب من فروق تجعل أحدها أدقّ من الآخر في مكان من دون غيره.

ثانياً: التوزيع:

ويقصد به تنظيم الألفاظ المختارة وتوزيعها على وفق قوانين اللغة ومبادئها، وما تبيحه تلك اللغة من تصرّف، وهذه العمليّة يطلق عليها جاكبسون إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع،[٣٤] فالأسلوبيّة ولا سيما الوظيفيّة تنطلق في بحثها من النصّ كنسق لغويّ؛ لرصد ما يحمله من دلالات وإيحاءات بدءاً بمفرداته وتراكيبه المشكّلة له، فهي تدرس الأسلوب في ظلّ البنى اللغويّة المشكّلة للظاهرة الأدبيّة، ومدى تناسقها وتضافرها داخليّاً لتكوين النصّ، وتعتمد صفة كلّ من العناصر المشكّلة للنصّ على بنية الكلّ وعلى القوانين التي تحكمه، ولا يمكن أنْ يكون للعنصر وجود قبل وجود الكلّ، وعليه لا يمكن تعريف أيّ عنصر منفصل إلّا بلحاظ العلاقات التقابليّة أوالتضاديّة بينه وبين العناصر الأخرى في إطار بنية الكلّ[٣٥].

عني السهيليّ بعقد المقارنات بين الألفاظ، وكانت نظرته في ذلك نظرة عامّة لا تقف عند حدود السورة كما فعل جمهرة المفسّرين، بل كان ينتقل مع اللفظ حيث استعمل، منبّهاً على ما يفيده من دلالات اقتضت أنْ يكون حيث كان في كتاب الله، وقد اتجه كثير من المحدثين إلى تطبيق هذا المنهج في التعاطي مع القرآن الكريم وتفسيره، ومنهم الأستاذ أمين الخوليّ في مناهج التجديد، والدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في التفسير البيانيّ للقرآن الكريم، والدكتور فاضل السامرائي في لمسات بيانيّة.

تعدّدت أوجه المخالفة في الأسماء، وهذا التعدّد يضفي على العبارات معاني مختلفة، مما يثري دلالاتها، فقد يؤثر سياق ما استعمال لفظ معين، في حين جاءت سياقات أخرى بلفظ آخر أدلّ على المراد من هذا اللفظ، ومنه تنبّه السهيليّ إلى أنّ لفظ الصراط في القرآن الكريم جاء في أكثر مواضعه بقوله: ((لم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ، وذكر في سورة الأحقاف بلفظ الطريق، فقال:﴿ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الأحقاف:٣٠]))[٣٦] مجيباً؛ وذلك لأنّه انتظم بقوله سبحانه: ﴿**سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى**﴾[الأحقاف:٣٠]، فأراد أنّه سبيل مطروق، قد مرّت عليه الرسل من قبله، وأنّه ليس ببدع، فاقتضى الإعجاز والبلاغة لفظ(الطريق)؛ لأنّ صيغة (فَعِيل) عدل بها عن معناها إلى معنى(مَفْعُول)، أي أنّه سبيل مطروق؛ لأنّ الرسل والأنبياء قد مشت عليه من قبل، وليس في المواضع الأخر ما يقتضي هذا المعنى، فأصبح لفظ الصراط أولى في الاستعمال، وأدق في الاختيار؛ لأنّه أنسب من جهتي الاشتقاق والوزن.[٣٧]

وتجلّى مبدأ التوزيع في حديثه عن ورود لفظ(السماء) مجموعة بخلاف(الأرض)، وتوزيعها على سطح النصّ القرآني على وفق ما يتطلّبه السياق والقصد، فهو يتساءل تساؤل العارفين الواقفين على أسرار الاستعمال القرآنيّ ما الفرق بينهما؟ ويجيب مبيّناً الفرق بينهما من جهة اللفظ والمعنى، فـ(الأرض) لم تجمع لأنّها على وزن ألفاظ المصادر الثلاثيّة الذي وجب لها في الأصل، وهو ما كان على وزن(فعل)، وهو وإنْ اختلفت أبنيته فالواحد منه ثابت قياساً على(فعلة)، وأمّا(السماء) فهي بالأسماء أشبه وإنْ كان مثالها في المصادر كالعلاء والجلاء، ومعنى الأرض التحت والأسفل، وهذا المعنى لا يثنى ولا يجمع، ويماثله في ذلك معنى الفوق والعلو في السماء فهو لا يثنّى ولا يجمع أيضاً، وأمّا الفرق القائم من جهة المعنى، فإنّ الكلام متى اعتمد وأريد به السماء المحسوسة التي هي بمعنى السقف، وقُصد به إلى ذاتها من دون معنى الوصف صحّ جمعها جمع مؤنّث سالم؛ لأنّ العدد قليل، وهذا الجمع بالقليل أولى، فإذا كان الكلام على الوصف استزاد لفظ(السماء) معنى العلا والرفعة، وإنْ كان الخبر عن السموات العلى، فيجري اللفظ مجرى المصدر الموصوف به في قولنا:(قوم عدل وزور).[٣٨]

وعند تتبع لفظ(الأرض) في القرآن الكريم وجد أنّها لم تجئ في القرآن مقصوداً إلى ذاتها، ولا معبّراً عنها إلّا بما هو بمعنى السفل والتحت؛ لذا أفردت؛ لأنّها جاءت بمعنى المصدر، وذلك تنبيها من الله تعالى على ذمّها، وإعراضاً عن ذكرها، وترك الاعتناء بها، فلم يكن –جلّ ثناؤه– ليعتمد ذاتها بالذكر، ولا يعبّر عنها بغير وصف الذم، بخلاف السماء فإذا اعتمد ذكر ذاتها مع ما فوقها جمع لفظها، وإذا اعتمد الوصف الشامل لسمواته–وهو معنى العلاء والعلو– أفرده، وذلك بحسب ما يتّصل به من كلام، ويقتضيه في بعض الآيات من دون بعض إعجاز الانتظام، كقوله تعالى:﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الذاريات:٢٣]، وكقوله:﴿**أَأَنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾[الملك:١٦]، فإنّ اعتماد الكلام في هذه الآي يخالف اعتماده ومقصده في قوله سبحانه:﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ**﴾ [الاسراء:٤٤]، وقوله:﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ**﴾ [سبأ:٢٤]، و﴿**خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ**﴾ [الطلاق:١٢]، فقد قصد فيها تعيين ذواتها وتفصيل آحادها بخلاف ما تقدّم.[٣٩]

وجلّ ما ساقه السهيليّ من أسرار مرتبط بدلالة اللفظ والمعنى الذي يوجبه السياق، ومن ثمّ فإنّ تنزيل الألفاظ في منازلها يرجع إلى مقتضيات معنويّة تتحقّق عندما تتحقّق صورة التعبير على نسق ونظم معيّن، فقال السهيليّ وقد تعرّض لبيان علل التقديم والتأخير في الكتاب العزيز بقوله:((ما تقدّم من الكلم فتقديمه في اللسان على حسب تقدّم المعاني في الجنان))[٤٠]، فليست الألفاظ هي التي تتقدّم، وإنّما الذي يتقدّم–في الحقيقة–المعاني، وكذلك قال الجرجانيّ في نظم الكلم:وهو أنّك((تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس))،[٤١] وهو يرجع بلاغة الكلام إلى معناه من دون لفظه في قوله: ((ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويّتك، وتراجع عقلك،

وتستند في الجملة فهمك))،[٤٢] ويصف باب التقديم والتأخير وصفاً دقيقاً بقوله:((هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثمّ تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك أنْ قدّم فيه شيء وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان))،[٤٣] وعليه فالسهليّ لا يختلف معه في شيء من ذلك، ولكنّه لا يغفل التأمّل في دلالات المفردات التي قضت باختيارها من دون غيرها، والتي بها تحقّقت براعة توزيعها، إذ تنبّه–على سبيل المثال– إلى التقديم في الصفات العلى لله– سبحانه وتعالى– وأسمائه، ولحظ أهميّة المقام وجعله الركن المهم في معرفة التقديم والتأخير فضلاً عن أسباب أخر كشفها من خلال حسّه البيانيّ، إذ قال:((متى يكون أحد الشيئين أحقّ بالتقديم، ويكون المتكلّم ببيانه أعنى؟ والجواب: أنّ هذا أصل يجب الاعتناء به؛ لعظم منفعته في كتاب الله تعالى، وحديث رسوله – صلى الله عليه وسلّم– إذ لابدّ من الوقوف على الحكمة في تقديم ما قدّم في القرآن وتأخيره... نحو قوله تعالى: ﴿**سميع عليم**﴾، ولم يجيء: (عليم سميع)، وكذلك:﴿ **عزيز حكيم**﴾، و﴿**غفور رحيم**﴾، وفي آية أخرى﴿**الرحيم الغفور**﴾، إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة))،[٤٤] وحدّد تلك الفوائد والحكم بما يأتي:

١– بحسب المعاني: فما تقدّم من الكلام يكون تقديمه في اللسان بحسب تقديم المعاني في الجنان.

٢– على حسب الخفّة والثقل لا بحسب المعنى، ومن ذلك الجنّ والإنس، فإنّ الإنس أخفّ لفظاً؛ لوجود النون وما تتصف به من خفّة والسين وما تتصف به من همس، فكان تقديم الأثقل أولى بأن يجيء أوّل الكلام من الأخف؛ وذلك لنشاط المتكلّم وجماحه، وأمّا التقديم في القرآن فلحكمة أخرى سوى هذه إذ قدّم الجنّ على الإنس في الأكثر.

تقديم السبب على المسبب نحو قوله:﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، فقدّم التوبة؛ لأنّ التوبة سبب الطهارة، وكذلك قوله:﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[الشعراء:٢٢٢]، فقدّم الإفك؛ لأنّه سبب الإثم، وكذلك قوله:﴿كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[المطففين:١٢]، ومنه تقديم السمع على البصر، وتقديم(سميع) على (عليم).[٤٥]

فالتقديم الذي يؤكّد عليه السهيليّ هو تبادل المواقع واستبدالها، إذ تترك الكلمة موقعها لتحلّ محلّها كلمة أخرى، بما يحقّق التوزيع الدقيق لتأدية غرض بلاغيّ ما كانت لتؤدّيه لو أنّها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغويّ.[٤٦]

ثالثاً: الاتساع:

يتجلّى مبدأ الاتساع في الذكر والحذف، وهو ((باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون بياناً إذا لم تبنِ))،[٤٧] وتظهر في هذا الباب دقائق البيان، وروائع الأسلوب، ومكنون التعبير، إذ وجدنا المعنى لا يتمّ إلّا بمراعاته، فلا يكون هناك سبيل إلى إظهار المحذوف، ولو أُظهر لزالت بهجة الكلام، وضاع رونقه،[٤٨] ورأى الدكتور علي أبو المكارم أنّ اللفظ قد مرّ بمراحل تطوّر دلاليّ، إذ كان الحذف مقيّداً بالطرف أوّل الأمر، ثمّ تطوّر فشمل دلالات متعددة، وأغلب ما ورد من الاصطلاحات المقاربة: الاستغناء،الاتّساع، الاختصار، الإضمار، التقدير، التضمّن، التأويل.[٤٩]

يستوقف السهيليّ حذف المفعول به في قول المصليّ في صلاته: سمع الله لمن حمده، ويشير إلى ما يؤدّي إليه الحذف من اتّساع بقوله:((وأمّا قولهم: سمع الله لمن حمده، فمفعول سمع محذوف؛ لأنّ السمع متعلّق بالأقوال والأصوات دون ما عداها، فاللام على بابها، إلّا أنّها تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة المقارنة للسمع، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على المعنى الزائد وهو الاستجابة لمن حمده، وهذا مثل قوله تعالى:﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الأنفال:٧٢]، ليست اللام لام المفعول–كما زعموا–ولا هي زائدة، ولكن ردف فعل متعدّ ومفعولها غير هذا الاسم، كما كان مفعول(سمع) غير الاسم المجرور، ومعنى ردف: تبع وجاء على الأثر، فلو حملته على الاسم إذا تأمّلته، لكان المعنى: ردف لكم استعجالكم وقولكم؛ لأنّهم قالوا:(متى هذا الوعد؟)، ثمّ حذف المفعول الذي هو القول والاستعجال اتكالاً على فعل السامع، ودلّت اللام على الحذف لمنعها الاسم الذي دخلت عليه أنْ يكون مفعولاً، وآذنت بفائدة أخرى وهي معنى(عجل لكم) فهي متعلّقة بهذا المعنى، فصار معنى الكلام: قل: فدلّت ردف على أنّهم قالوا: واستعجلوا، ودلّت اللام على المعنى الآخر، فانتظم الكلام أحسن نظام واجتمع الإيجاز مع التمام، وظهر الإعجاز في النظم والبلاغة في الخطاب، وهذه نكتة لمتدبّرها خير من الدنيا بحذافيرها)).[٥٠]

فالسهيليّ ينبّه إلى أنّ حذف المفعول به في هذا المقام اختيار أسلوبيّ هدفه التركيز على الحدث واتّساعه، ويلتمس له أشباهاً ونظائر في القرآن الكريم، فيذكر منها ما تقدّم من الآيات، حيث إنّ الحذف فيها أبلغ من الذكر، وهو اختيار اسلوبيّ متعمّد ومقصود.

ومن الاتساع الذي ذكره ما جاء في حديثه عن قسم النعت الخامس الذي أضافه لصفات الله –سبحانه–وهو الأسماء الجميلة التي يدلّ كلّ واحد منها على معان لا على معنى واحد أي أنّ في استعمال أحدها يتسع المعنى المراد ولا يقتصر على صفة واحدة، كـ(عظيم، ومجيد، وكريم) ((فإنّ كلّ واحد من هذه الأسماء لا ينبئ عن معنى مفرد، فإنّ العظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات المدح، والمجيد كذلك إنّما هو في معنى الزيادة في الشرف على غيره))،[٥١] ومنه عدم تصريح الرسول–صلى الله عليه وآله

وسلّم- بطلب الزيادة من ربّه تعالى حين سأله الصلاة عن نفسه، كما صلّى على إبراهيم(عليه السلام) تأدّباً مع أبيه الخليل(عليه السلام)، فتعرّض إليه بقوله:(إنّك حميد مجيد)، إذ ذكر الاسم من أسمائه – سبحانه وتعالى- تعرّض من العبد لطلب مقتضاه وما يدلّ عليه فحواه.[٥٢]

ومن التراكيب التي تؤدّي إلى اتّساع المعنى ما أشار إليه في الفرق بين استعمال المتكلّم أنّ المصدريّة والفعل، أو المصدر، فاستعمال المتكلّم لتركيب(أعجبني قدومك)، فيه اتّساع في المعنى، إذ يحتمل معاني عدّة منها: أنْ يكون القدوم نفسه هو العجب لكن من دون صفة من صفاته أو هيأته، وإنْ كان لا يوصف في الحقيقة بصفات، ولكنّها عبارة عن الكيفيّات، واحتمل أيضاً أنْ تريد أنّك أعجبتك سرعته أو بطؤه أو حالة من حالاته؛ لذا يقع عليه الاختيار إنْ كان المراد تعدد المعاني، وإنْ لم يكن فالتعبير بـ(أنْ والفعل) أي:(يعجبني أنْ قدمت)، فـ(أنْ) مع الفعل بمنزلة الطابع والعنوان من عوارض الاحتمالات المتصورة في الأذهان.[٥٣]

رابعاً: الانزياح:

تقوم أسلوبيّة الانزياح على مبدأ انزياح اللغة الأسلوبيّة عن اللغة العاديّة، ويعرف الأسلوب على أنّه انزياح اللغة عن المعيار المتعارف عليه، مما يجعل الأسلوبيّين يعتقدون أنّ من اشتراطات جودة الأسلوب الانحراف عن اللغة الأصليّة، وطريقتها الاعتياديّة في النظم والتعبير، وهم ليسوا على وتيرة واحدة في تحديد مدى الانحراف والانزياح، فمنهم من دعا إلى الخروج عن كلّ معايير اللغة، وهذا ما طبّقه أهل الحداثة في أدبهم، ومنهم من اعتدل فرأى أنّ الانزياح لا يخرج عن الحدود التي أطّرتها قواعد اللغة، بحيث يكون الإبداع كامناً بسلوك طرق جديدة غفل عنها الآخرون، لكنّها تسير على وفق أنظمة اللغة ولا تخالف قواعدها، أي النحو،[٥٤] ويسمّيها كوهين الانتهاك، إذ إنّ المبدع يكون معتمداً في إبداعه على انتهاك مستوى اللغة المثالي واختراقه،[٥٥] ويعرفه جون كوهن بأنّه:((طريقة لخرق قانون اللغة العاديّة))،[٥٦] بينما يرى ريفاتير أنّ الانزياح:((يكون خرقاً للقواعد حيناً، ولجوءاً إلى ما ندر من الصيغ حيناً آخر))،[٥٧] وتعتمد فكرته من وجهة المتلقي على ارتباط مفهوم الأسلوب بعنصر المفاجأة تبعاً لردّة الفعل، كأن تصدم متقبّل الرسالة، وتحدث له تشويشاً، وبقدر ما تكون السمة الأسلوبيّة متضمّنة مفاجأة فإنّها تحدث هزّة وخلخلة في إدراك القارئ ووعيه،[٥٨] ويرى أنّ خرق أفق انتظار القارئ يعمّق القوة التأثيريّة للخطاب، ويعزّز فاعليته ونجاعته،[٥٩] وقد استقرّ في وعي النقاد العرب المحدثين على أنّه:((كسر للمعيار غير إنّه لا يتمّ إلّا بقصد من الكاتب أو المتكلّم، وهذا ما يعطي لوقوعه قيمة لغويّة وجماليّة ترقى به إلى رتبة الحدث الأسلوبيّ)).[٦٠]

يتساءل السهيليّ تساؤل العارفين الواقفين على أسرار الكتاب العظيم، لمَ جاءت الآية﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾[البقرة:٢١٧] مخيبة أفق انتظار المتلقي الذي كان يتوقّع أنْ يعيد ذكر القتال بلفظ المضمر، فيقول: هو كبير، كما لو سأل إنسان عن رجل في الدار، لقال: هو فلان أو هو طويل أو قصير بلفظ المضمر، ويقبح أنْ يقول بلفظ الظاهر؛ لأنّ المضمر- إذا عرف المعنى- أوجز وأولى، غير إنّ في إعادة لفظ القتال بالظاهر هنا فائدة، وهي عموم الحكم، فلو جاء بالمضمر وقال: هو كبير لاختصّ الحكم بذلك القتال الواقع في القصّة، وليس المراد ذلك، وإنّما أريد حكم عام في كلّ قتال وقع في شهر حرام،[٦١] فالانزياح عن المتعارف في اللغة في هذه الآية الكريمة لم يتمّ إلّا بقصد، وهذا ما أعطى لوقوعه قيمة لغويّة ودلاليّة.

ويتساءل أيضاً عن مجيء(السجود)على وزن(فعول) في قوله تعالى:**﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [الحج:٢٦] ولم يقل:(السجّد) كما قال:(الركّع)، وكما قال في آية أخرى:(ركّعاً سجّداً)، فلم جمع (ساجد) على (سجود)، ولم يجمع(راكع)على (ركوع)؟ الجواب: لجأ إلى صيغة أخرى؛ لأنّ السجود-في أصل موضعه- عبارة عن الفعل، ومعناه: الخشوع والخضوع، وهو يتناول السجود الظاهر والباطن، ولو جاء بالجمع على لفظ (السجّد)لأصبح مختصّاً بالمعنى الظاهر، وكذلك الركّع، لذا استعمل هاتين الصيغتين في قوله:**﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾**[الفتح:٢٩]؛ لأنّ المعنى المراد رؤية العين، وهذه الرؤية لا تتعلّق إلّا بالظاهر، فالمقصود الركوع الظاهر؛ لعطفه على ما قبله مما يراد به قصد البيت، والبيت لا يتوجّه إليه إلّا بالعمل الظاهر وأمّا الخشوع والخضوع الذي يتناوله لفظ (الركوع) دون لفظ (الركّع) فليس مشروطاً بالتوجّه إلى البيت، أمّا(السجود) فمن حيث أنبأ به عن المعنى الباطن، جعل وصفاً للركّع ومتمّماً لمعناه؛ لأنّ الركوع الظاهر لا يصحّ إلّا بالسجود الباطن؛ لذا قال:(الركّع السجود) فخالف بصيغ الجمع، ومن حيث تناول لفظه -أيضاً- السجود الظاهر الذي يشترط فيه التوجّه إلى البيت، حسن انتظامه بما قبله، فمن لحظ هذه المعاني بقلبه، وتدبّر هذا النظم البديع بلبّه، ترفّع في معرفة الإعجاز عن التقليد، وأبصر بعين اليقين أنّه تنزيل من حكيم حميد.[٦٢]

خامساً: الاحصاء:

يرى بيير جيرو:((أنّ الإحصاء هو العلم الذي يدرس الانزياحات، والمنهج الذي يسمح بملاحظتها وقياسها وتأويلها، ولذا فإنّ الإحصاء لا يتوانى عن فرض نفسه أداة من الأدوات الأكثر فعالية في دراسة الأسلوب))،[٦٣] وينطلق الباحث في مجال الأسلوبيّة الإحصائيّة من العلاقة القائمة بين معدلات تكرار خاصّة على مستوى الأبنية اللغويّة وعلاقاتها بسياقاتها المختلفة،((فالتحليل الأسلوبيّ عند أنصار الاتجاه الإحصائي يعتمد على معدلات تكرار العناصر في نصّ ما، ويركّز عندئذ على الاحتمالات السياقيّة)).[٦٤]

تعتمد الدراسات الأسلوبيّة المعاصرة الإحصاء لإبراز ملامح الخصوصيّة والتفرّد، وتحديد السمات الأسلوبيّة الخاصّة بالمنشئ، غير إنّ الإحصاء وحده لا يكفي بل لابدّ من مقارنة النصّ المدروس بنصوص أخرى من جنسه، إذ إنّ نتائج الإحصاء لا تكون مجدية وذات قيمة إلّا إذا نظر إليها في ضوء الفوارق وقورنت باستعمالات مماثلة في السياق نفسه، وهناك طريقتان أساسيتان للإحصاء هما:

الطريقة الأولى: استعمال الإحصاء الكمّي والعددي، وهي الطريقة العلميّة الجادّة، إذ تقوم على ترجمة الحقائق والمعطيات اللغويّة في النصّ إلى أرقام ونسب.

الطريقة الثانية: استعمال عبارات ذات أساس عددي موضوعي مثل: نادراً، بكثرة، أحياناً، بمعنى أنّ هذه العبارات لها دلالات رقميّة من حيث القلّة والكثرة.[٦٥]

ولم يستعمل السهيليّ إلّا الطريقة الثانية، أي العبارات ذات الأساس العددي التي لها دلالات رقميّة من حيث القلّة والكثرة، فتنبّه السهيليّ–مثلاً–إلى أنّ لفظ(الصراط) جاء في أكثر المواضع في القرآن الكريم، وإيثار التعبير بلفظ (الطريق) في سورة الأحقاف﴿**قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الأحقاف:٣٠]،[٦٦] وبيانه لعلّة الانزياح في الاستعمال القرآني يعدّ من الأسلوبيّة الإحصائيّة، وفي حديثه عن تقديم السبب على المسبب–كما تقدّم–استعمل عبارة((مما لا يكاد ينحصر))،[٦٧]وهي عبارة ذات طبيعة إحصائيّة.

ونلمح الأسلوبيّة الإحصائيّة في حديثه عن الحمل على المعنى في دخول تاء التأنيث على الفعل، إذ يقول: ((فكثيراً ما تفعل العرب ذلك، تدع حكم اللفظ الواجب له في القياس إذا كان في معنى الكلمة ما ليس له ذلك الحكم، ألا تراهم يقولون: هو أحسن الفتيان وأجمله في معنى هو أحسن فتى وأجمله، ونظائر هذا كثير، فإذا حسن الحمل على المعنى فيما كان القياس أنْ لا يجوز فما ظنّك به حيث يجوّزه القياس والاستعمال))[٦٨]، فعبارة: (كثيراً ما تفعل العرب) إحصاء من النوع الثاني دالّة على كثرة استعمال العرب أسلوب الحمل على المعنى.

ومنه استعمال (قلّما) بقوله:((فأمّا في كتاب الله تعالى، فقلّما تجد أسماءه الحسنى معطوفة بالواو، لا نحو:﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الرحمن:١]، و﴿**العَزِيْز الحَكِيْم**﴾ [البقرة:٢٩] و﴿ **المَلك القدُّوْس**﴾ [الحشر:٢٣]، إلى آخرها؛ لأنّها أسماء له –سبحانه– والمسمّى بها واحد فلم تجرِ مجرى تعداد الصفات المتغايرة، ولكن مجرى الأسماء المترادفة، نحو: الأسد والليث، وغير ذلك))،[٦٩] وكقوله في (أمّ) في القرآن الكريم: ((وأحسب جميع ما وقع منها في القرآن إنّما هو على أصلها الأوّل من المعادلة، وإنْ لم يكن قبلها ألف استفهام،نحو قوله:﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ**﴾[الطور:٣٠]، و﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ**﴾[الكهف:٩]؛ لأنّ القرآن كلّه مبنيّ على تقريع الجاحدين وتبكيت المعاندين، وهو كلّه كلام واحد، كأنّه معطوف بعضه

على بعض...ونظيره ما يتكرّر في القرآن من قوله سبحانه:﴿**وإذْ قُلْنَا**﴾[البقرة:٥٨]، و﴿**إذْ فرّقنا**﴾[البقرة:٥٠])).(٧٠)

إذاً قام السهيليّ بإحصاء الظاهرة الأسلوبيّة ومقارنتها بمثيلها مستعملاً عبارات ذات أساس عددي من نحو: كثيراً، مما لا يكاد ينحصر، وقلّما، وجميع، ما يتكرر، في أكثر المواضع... وغيرها من العبارات التي تجعل الإحصاء من الأسس الكبرى في منهج التحليل الأسلوبيّ عنده.

الخاتمة:

١- اهتمّ السهيليّ بالقارئ الحصيف المتميّز الذي يعرف نوع التراكيب التي تمتلكها اللغة، ومن ثمّ يعرف نوع الخصائص التي يتوقّع أنْ تكون لها دلالة أسلوبيّة، ويعرف نوع السياق الذي ترتبط به سمات خاصّة، ويمتلك تقنيات استنباط هذه السمات بطريقة منهجيّة، أي أنّه قارئ ذو كفاءة أسلوبيّة عالية له خبرة طويلة بالأساليب.

٢- لم يغفل السهيليّ تأثير القصد في بنية النصّ وأسلوبه، فالمنشئ يبني نصّه بناءً معيناً، ويختار لذلك وسائل لغويّة ملائمة بما يضمن له تحقيق مراده في التواصل مع المخاطب، وتجلّى ذلك في حديثه عن قصد المتكلّم في اختيار الألفاظ التي ينطق بها لإعلام المخاطب بشيء ما.

٣- تأثّر أسلوب السهليّ بأساليب المنطق، وقد بدا ذلك التأثّر واضحاً في استعماله مصطلحات منطقيّة في كثير من المواضع التي حاول فيها الربط بين اللغة والمنطق، وتشبيه المفاهيم اللغويّة بالمفاهيم المنطقيّة.

٤- غلب على أسلوبه الحجاج بوصفه أحد أهم المباحث الأسلوبيّة في اعتماده على إثارة الأسئلة والإجابة عنها، أي أنّ حواراته كانت مع محاور مفترض.

٥- انطوى تحت مظلّة كتاب نتائج الفكر كثير من الظواهر الأسلوبيّة، وإنْ لم يشر إليها السهيليّ صراحة في الغالب إلّا أنّها تجلّت في القضايا اللغويّة التي عالجها.

٦- يمكن القول إنّ السهيليّ كان أسلوبيّاً وإنْ لم يعمد إلى المصطلحات الأسلوبيّة لكنّها بدت واضحة جليّة في تحليلاته لآيات القرآن الكريم وأبيات الشعر العربيّ، وحتّى في تراكيب كلامه، فلا تكاد تخلو مسائله فيها من الحديث عن النظم القرآنيّ وأسلوب اختيار مفرداته وتعبيراته، فهو لا يكاد يقتنع بالإدراك السطحيّ الظاهريّ للنصّ، فراح يبحث عن علل وأسرار اختيار الألفاظ والتراكيب والتماس المعاني التي تعطيها، وربما نكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا إنّ السهيليّ كان عالماً بالأسلوب لا أسلوبيّاً.

٧- تجلت الظواهر الأسلوبيّة في تحليلات السهيليّ اللغويّة من أسلوبيّة تعبيريّة وصفيّة، إذ بيّن –كما وجدنا– طاقة اللغة التعبيريّة ووصف الوسائل اللغويّة، وما ركّز عليه من أساليب تتحكّم في المفردات والتراكيب، وما ظهر في تحليله من الموازنة بين الأنماط التعبيريّة في سياقاتها التعبيريّة الوجدانيّة، وبيّن السهيليّ نهج القرآن في اختيار ألفاظه الذي يقوم على مراعاة دلالات خاصّة، فللاختيار دواعيه وأسبابه؛ لما بين الألفاظ والتراكيب من فروق تجعل أحدها أدقّ من الآخر في مكان من دون غيره.

٨- إنّ تنزيل الألفاظ في منازلها يرجع إلى مقتضيات معنويّة تتحقّق عندما تتحقّق صورة التعبير على نسق ونظم معين، والتقديم الذي يؤكّده السهيليّ هو تبادل المواقع واستبدالها، بحيث تترك الكلمة مكانها لتحلّ محلّها كلمة أخرى، بما يحقّق التوزيع الدقيق لتأدية غرض بلاغيّ ما كانت لتؤدّيه لو أنّها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغويّ.

٩- يكثر السهيليّ من التساؤل عن أسرار الكتاب العظيم، ولم جاءت بعض تراكيبه وهي تكسر أفق التوقع عند المتلقي الذي كان يتوقّع أنْ يجيء بها على نمط آخر.

١٠- وظّف السهيليّ الأسلوبيّة الإحصائيّة باستعمال عبارات ذات أساس عددي من نحو: كثيراً، مما لا يكاد ينحصر، وقلّما، وجميع، ما يتكرر، في أكثر المواضع... وغيرها من العبارات التي تجعل الإحصاء من الأسس الكبرى في منهجه الأسلوبيّ.

الهوامش:

(١) نتائج الفكر في النحو: ٢٦.

(٢) ملامح أسلوبيّة في تفسير الكشّاف للزمخشريّ: ٣٠٣.

(٣) نتائج الفكر: ٣٥.

(٤) المصدر نفسه:٢٦.

(٥) المصدر نفسه:٣٣٢-٣٣٣.

(٦) المصدر نفسه:٢١٥.

(٧) المصدر نفسه:١١١.

(٨) المصدر نفسه:٣٣١.

(٩) المصدر نفسه:٢٢.

(١٠) ينظر: من أعلام الأندلس السهيلي وكتابه نتائج الفكر: ٢١٤، ٢١٨.

(١١) نتائج الفكر:١٠١.

(١٢) المصدر نفسه:١٥٩.

(١٣) المصدر نفسه:١٦٠.

(١٤) المصدر نفسه:٢٤٠، وينظر: المصدر نفسه:٢٦١، ٢٧٨.

(١٥) المصدر نفسه:٢٩٧.

(١٦) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩٧-٢٨٠.

(١٧) المصدر نفسه:٢٩٨.

(١٨) المصدر نفسه:٣٢٢.

(١٩) المصدر نفسه:٢٦١.

(٢٠) المصدر نفسه:١٢٧.

(٢١) ينظر: محاضرات في الأسلوبيّة وتحليل الخطاب:٤٦.

(٢٢) ينظر: ملامح أسلوبية في تفسير الكشاف للزمخشري:٢٠٠ نقلاً عن

Semantic,anintroduction tio the Science of meaning, P:151.Stephen ULLman

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) الأسلوبية والأسلوب: ١٠٨.

(٢٥) نتائج الفكر:٣٧٠.

(٢٦) المصدر نفسه: ٢٠٣.

(٢٧) المصدر نفسه: ٢٥٥.

(٢٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٧.

(٢٩) ينظر: المصدر نفسه:١٤١.

(٣٠) المستدرك على الصحيحين، النيسابوريّ:٢٣٧/١، الحديث(٤٩١).

(٣١) نتائج الفكر: ٢٤٤.

(٣٢) ينظر: المصدر نفسه:٢٠٤.

(٣٣) المصدر نفسه:٢٣٩.

(٣٤) ينظر: الأسلوبيّة والإسلوب:١٠٨-١٠٩.

(٣٥) ينظر: الأسلوبيّة منهجاً نقديّاً:١١٠.

(٣٦) نتائج الفكر:٢٣٤.

(٣٧) ينظر: المصدر نفسه:٢٣٧.

(٣٨) ينظر: المصدر نفسه:١٢٣.

(٣٩) ينظر: المصدر نفسه:١٢٣-١٢٤.

(٤٠) المصدر نفسه:٢٦٧.

(٤١) دلائل الإعجاز:٤٩/١.

(٤٢) المصدر نفسه:٥١/١.

(٤٣) المصدر نفسه:٨٣/١.

(٤٤) نتائج الفكر:٢١٠.

(٤٥) ينظر: المصدر نفسه:٢٠٩.

(٤٦) ينظر: بلاغة الكلمة والجملة والجمل:١٣٨.

(٤٧) دلائل الإعجاز:١١٢/١.

(٤٨) ينظر: فقه اللغة وسر العربيّة:٣٧٦.

(٤٩) ينظر: الحذف والتقدير في النحو العربي:١٩٩.

(٥٠) نتائج الفكر:٣٥.

(٥١) المصدر نفسه:١٦١.

(٥٢) ينظر: المصدر نفسه:١٦١-١٦٢.

(٥٣) ينظر: المصدر نفسه:٩٧.

(٥٤) ينظر: في الأسلوب والأسلوبيّة:٤٦.

(٥٥) ينظر: البلاغة والأسلوبيّة:٢٦٨.

(٥٦) بنية اللغة الشعريّة:١٩١.

(٥٧) الأسلوبيّة والأسلوب:١٠٣.

(٥٨) ينظر: المصدر نفسه:٦٨.

(٥٩) ينظر: المصدر نفسه:٦٧.

(٦٠) الأسلوبيّة وتحليل الخطاب:٧١.

(٦١) ينظر: نتائج الفكر:٣٤٣.

(٦٢) ينظر: المصدر نفسه:٢١٥.

(٦٣) الأسلوبيّة:١٣٣.

(٦٤) علم الأسلوب والنظرية البنائيّة:١/٢٢٤.

(٦٥) ينظر: التحليل اللغويّ الأسلوبيّ منهج وتطبيق:١٩.

(٦٦) ينظر: نتائج الفكر:٢٣٤.

(٦٧) المصدر نفسه:٢٠٩.

(٦٨) المصدر نفسه:١٣٣.

(٦٩) المصدر نفسه:١٨٧.

(٧٠) المصدر نفسه:٢٠٥-٢٠٦.

المصادر والمراجع:

- الأسلوبيّة منهجاً نقديّاً، محمد عزّام، وزارة الثقافة السوريّة، ط١، ١٩٨٩م.
- الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدّي، الدار العربيّة للكتاب، ط٣، دت.
- الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، د. منذر عياشي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٥م.
- الأسلوبيّة، بيير جيرو، ترجمة: د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط٢، ٢٠٠٨م.
- بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منير سلطان، منشأة المعارف، مصر، ط١، ١٩٩٣م.
- البلاغة والأسلوبيّة، د. محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصريّة العالميّة للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٤م.
- بنية اللغة الشعريّة، جون كوهن، ترجمة: محمد الولي، ومحمد العمري، مكتبة الأدب المغربيّ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦م.
- التحليل اللغويّ الأسلوبيّ منهج وتطبيق، عبد الرحيم الرحمونيّ، ومحمّد بو حمدي، مطبعة الليدو، فاس، ط١، ١٩٩٤م.
- الحذف والتقدير في النحو العربيّ، د.علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمّد شاكر، مطبعة المدنيّ، القاهرة، دار المدنيّ، جدة، دط، دت.
- علم الأسلوب والنظرية البنائيّة، صلاح فضل، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ط١ ،١٩٨٥م.
- فقه اللغة وسر العربيّة، أبو منصور الثعالبيّ، قرأه وقدّم له وعلّق عليه، خالد فهمي، تصدير: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- في الأسلوب والأسلوبيّة، محمّد اللوميّ، مطابع الحميضيّ، ط١، دت.
- محاضرات في الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، د. وردة بويران، دار من المحيط إلى الخليج للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨م.
- ملامح أسلوبيّة في تفسير الكشّاف للزمخشريّ، محمد بوحمدي، المناهل، العدد:٤٨، ١ اكتوبر، ١٩٩٥م.
- من أعلام الأندلس السهيليّ وكتابه نتائج الفكر، د. محمد زهار، مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة– الجزائر، ع٦، ٢٠٠٧م.
- نتائج الفكر في النحو ، أبو القاسم السهيليّ ، تحقيق : محمد إبراهيم البنا ، دار الرياض للنشر والتوزيع ، ط٢، ١٩٨٤م.